دور النخبة في المجتمع الإسلامي في منظور ابن رشد

د. محفوظ سماتي

جامعة الجزائر

قال تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن». (النحل -الآية 125).

انطلاقا من هذه الآية قسم أبو الوليد ابن رشد الناس إلى ثلاثة أصناف حسب طباعهم وقدرتهم على تقبل الدعوة الإسلامية. فالصنف الأول لا يصدق إلا بالبرهان وهو مكون من أهل الحكمة والصنف الثاني يصدق بالأقاويل الجدلية وهم أصحاب الجدل والصنف الثالث يصدق بالأقاويل الخطابية فتكفى فيهم الخطب والمواعيظ.

وإذا كانت الفئة الثالثة تشكل الجمهور فالفئة الأولى لا تتضمن إلا الأقلية النادرة وهم العلماء بالمفهوم الصحيح فقد استطاعوا بفضل فطرتهم

وثقافتهم الواسعة أن ينفذوا إلى المعاني الباطنية وبلغوا بمعرفتهم درجة الراسخين في العلم الذي قال فيهم تعالى: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هي أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا اللّه والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب». (آل عمران آية 7)

فالراسخون في العلم يتمتعون بأعلى منزلة في السلم الثقافي فهم النخبة حقا لكن ما هو تأثيرهم في المجتمع وتسييره؟ -ففعالية النخبة تقدر بتأثيرها السياسي. وعرفها كل من باريتو وموسكا بأنها «جماعة في وضع يسمح بممارسة السلطة بشكل مباشر أو في وضع يمكنها من التأثير بقوة على ممارسة السلطة السياسية»(1).

فإذا رجعنا إلى المجتمع الإسلامي الأول نجد الصحابة رضوان اللّه عليهم يشكلون النخبة من جهتين من حيث مراقبتهم لإدارة شؤون الأمة ومن حيث فهمهم للقرآن وقدرتهم على تأويل آياته فمرتبتهم الاجتماعية والعلمية جعلتهم يمارسون السلطة السياسية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، إنهم يمثلون قوة سياسية وفكرية ينبغي الرجوع إليها في كل أمر يهم المجتمع دينا ودنيا. ومن هنا نلاحظ أن الخليفة كان محاطا في كل مجالسة بالصحابة يستشيرهم ويأخذ برأيهم لكن إذا تأملنا بنية هذه الفئة الفاضلة نجدها متجانسة خرج كل أعضائها من مدرسة واحدة واغترفوا العرفان من منبع واحد رباهم الرسول (ص) وهذب سلوكاتهم فكان القصد واحدا ولو أن المسالك تبدو مختلفة أحيانا.

ثم إن هذه النخبة كانت تشرف على كل القطاعات فمنها أولوا الأمر والفقهاء والقادة العسكريون والوجهاء وكل من يدعي شرفا أو ميزة -فهذه الجماعة متماسكة لا لأن لها مصالح مشتركة ولكن هدفها واحد وإيديولوجيتها واحدة- أملها تحقيق المجتمع الإسلامي حسب الدستور القرآني والسنة النبوية دون تأويل مضر بعقيدة الجمهور البسيطة مع ما يجره من اضطرابات اجتماعية- روى البخاري في صحيحه أن الإمام علي (ض) قال: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب اللّه ورسوله؟»

فكانت النخبة الأولى تحافظ على سر التأويل فلا تكشفه للكافة حسب تعبير ابن خلدون أو أهل الخطابة والموعظة كما يقول ابن رشد فالمعاني الباطنية تحمل في طياتها مفجرات لا يمسكها إلا العارف بها ولهذا تعتبر من المضنون به على غير أهله، فالحكمة إذن توجه إلى أصحابها فقط فإذا أذيعت في الأسواق عادت وبالاً على المجتمع. والنخبة التي لها منهج تربوي تحاول أن ترقي الجماهير إنطلاقا من مستواها (أي الجماهير) الثقافي ولا تحملها ما لا تطيق. ويؤكد لنا ابن رشد مرة ثانية أن هناك انسجام بين المعاني الظاهرية والباطنية وبين استعدادات النفوس لتقبلها فيقول: «والسبب في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف فطر الناس وتبيان قرائحهم في التصديق والسبب في ورود الظواهر المتعارضة فيه هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينها»(2).

فالشرع إذن يراعي جميع المستويات الثقافية ليكون عاما وعلى العلماء التأويل لتأخذ كل فئة نصيبها وهذا الدور الموكول إلى النخبة متعدد الجوانب فيخص الأحكام الشرعية والمعاملات والثقافة ... الخ. ومن هنا يتضح أن

مفهوم النخبة في المجتمع الإسلامي يقصد به الإطلاع الكامل على أوضاع المجتمع والكفاءة المطلقة في فهم النصوص وتأويلها وتصنيفها اعتبارا للواقع الاجتماعي.

فأهل الحل والعقد يشكلون النخبة بمفهومها التقليدي والعصري فهم يمارسون السلطة السياسية بتعيينهم الرئيس ويستمر نفوذهم عليه بحيث يراقبون تصرفاته فهذه المكانة الاجتماعية الرفيعة لا يحتلها إلا من توفرت فيه شروط ثلاثة ذكرها الموردي في الأحكام السلطانية فالمسؤولية على هذا المستوى جسيمة ولا يتولاها إلا من أثبت قدرته العلمية ونزاهته الأخلاقية كما يجب أن تتحقق فيه الصفات الآتية:

1 - العدالة الجامعة لشروطها من استقامة وأمانة وتقوى.

2 - العلم الذي يتوصل به إلى معرفة مستحق الإمامة.

3 - الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار إلى من هو للإمامة أصلح.

فمن هو الشخص الذي تكمل فيه هذه المميزات النادرة؟ فربما إذا جمع ما عند كل أعضاء هذه الجماعة من محامد ومعرفة يعطينا صورة مثالية لأهل الحل والعقد -فهذه الفئة ليست مغلقة كما هو معروف عن طائفة الأبراهمة في الهند لكنها حفت بمصاعب لا يجتازها إلا العلماء الأبرار وبهذا سد الباب في وجه «الجدليين بالطبع والعادة» كما سماهم أبو الوليد فهم ليسوا من الكافة فيهم استعداد للإصغاء واتباع الصواب وراء مرشد يأخذ بأيديهم وليسوا كذلك من أهل الحكمة والتأويل البرهاني فثقافتهم جزئية وبسيطة لكنها جعلتهم في وضع خطر فهم أقرب إلى الجماهير أكثر

من العلماء يتقنون لهجتهم ويعرفون مشاعرهم يثيرونها حسب الظروف والحاجة. فنزولهم إلى الميدان الشعبي جلب لهم أتباعا مخلصين لا يحاجونهم في أي اقتراح وبهذا أصبح السلطان يخشاهم فيصانعهم ويداريهم ليكسب بذلك الهدوء الاجتماعي ولو لفترة قصيرة لكن على حساب الأفكار العلمية التي ينتجها الحكماء المنعزلون عن المجتمع ولقد أطلق عليهم ابن باجه اسم «النوابت» لأنهم غرباء في وطنهم.

والصراع بين الفئات المثقفة يرجع تاريخه في المجتمع الإسلامي إلى القرن الأول الهجري مع نهاية الخلافة وبداية تفكك المجتمع إثر الأزمات السياسية التي كانت فاصلا بين عهدين:

عهد الخلفاء الراشدين الذي كانت تغمره العقيدة المتينة وبساطة الحياة البدوية وما تبثه في النفوس من احتقار للماديات وملذاتها فكانت النخبة تتطلع إلى غايتين: تدعيم المجتمع الإسلامي وارساء قوائمه والعمل من أجل الآخرة، لنيل الجزاء الأوفى، فكان الصحابة (ض) أوفياء للنموذج النبوي الذي يحث على الإهتمام بالدنيا دون الوقوع في فخها وفي الآية الكريمة ما يعبر عن هذا «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا» الكهف 46.

أما العهد الثاني فقد بدأ بانقلاب الخلافة ملك مع ضياع الحقوق السياسية التي منحها الإسلام وفي هذا العهد عرف المسلمون الصراع الفكري بين الفئات السياسية التي نزلت إلى ميدان المعركة تاركة الحكم للسيف فكم من أرواح زهقت وكم من مجهودات بذلت من كل الأطراف المتنازعة غايتها القضاء الكامل على الخصوم فبماذا نعلل هذا التناحر؟ هل

سببه الانحراف عن المبادئ القرآنية؟ أم إن العنف تلقائي في سلوكاتنا نستخدمه لاثبات آرائنا؟ ومن المحتمل أن تكون هذه النزاعات الدموية سببها فشل النخبة في الميدان الفكري -فالمناقشات العلمية التي كانت تجري بين المتعارضين على مشهد من الناس لم تكن خالية من الحقد والضغينة رغم ما يبدو عليها من تسامح وحرية في الكلام فكل فئة تتربص الدوائر بالأخرى لتبيدها أو تقهرها. إنه حب التسلط! حب الاحتكار! احتكار الفكر! احتكار السلطة وكلنا يعلم ما ينجر عن سلوك كهذا من أوخام اجتماعية وتعطلات فكرية.

فتعدد النخبات واختلاف آرائها أضر بالمجتمع الإسلامي عندما بلغت الخلافات أوجها وأخذت من النفوس كل مأخذ فتعقدت العقيدة وضاع التسامح ودخلت الفرق في صراعات لا هوادة فيها وعمت البغضاء والكراهية حتى للمعتزلة الذين دافعوا عن الإسلام وردوا الهجمات عليه مجادلين جدالا علميا أهل الديانات الأخرى من يهود ونصارى ومجوس. فيما كانوا يثيرون من تشكيك وتضليل ويحاول أحمد أمين أن يذكر بعض أسباب نفور جمهور المسلمين من المعتزلة وفشل حركتهم فيقول: «إنهم خالفوا أهل الحديث في كثير من آرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة ومنها أنهم حولوا العقيدة الإسلامية البسيطة إلى عقيدة فلسفية عميقة ومنها أنهم في أيام سلطتهم في عهد المأمون والمعتصم نكلوا بالناس في القول بخلق القرآن ولم يسيروا سيرة فلسفية في الاكتفاء بتأييد رأيهم بالحجة بل حملوا الناس على القول برأيهم بالسيف وكان في ذلك ذهاب دولتهم وسمعتهم ولعل من هذه الأسباب أنهم أنزلوا الصحابة منزلة سائر

الناس فلم يقروا لهم بعصمة وجرؤوا عليهم يشرحون أعمالهم ويحكمون بصواب بعضها وخطإ بعضها»(3) وحينما دارت عليهم الدائرة وارتقى المتوكل العباسي إلى العرش عاملهم المحدثون نفس المعاملة وشردوهم قاضين بذلك على هذا التيار الفكري الذي كان يرى أن تغيير المجتمع الإسلامي يبتدئ بتصحيح العقيدة أولا -لكن المغالاة والتعصب المذهبي أديا إلى الإرهاب الفكري كما نقول اليوم- فكانت النتيجة أن دمرت كل حركة الحركة المعادية لها واستمرت الأوضاع الاجتماعية على حالها بل تدهورت.

ونفس العملية كررت بالمغرب الإسلامي فبعد ازدهار الفكر الفلسفي ومحاولة بعض المفكرين كابن رشد مثلا التوفيق بين العقيدة والحكمة شنت حملات عنيفة على تلك الأفكار النيرة كانت نتيجتها احراق كتب الفلسفة وطرد أهلها وتغريبهم والرجوع إلى النموذج الاجتماعي التقليدي والتمسك به.

وحيث إن مجتمعنا لم يبد استعداده لتقبل تلك الحركة الفكرية فأفسح لها المجال لتعبر جبال البرانس حيث تجد أرضا أكثر قابلية فكانت أوربا هي المستفيدة من الإنتاج الفكري الإسلامي وبهذا يتأكد لنا أن هجرة الأدمغة من الشرق إلى الغرب ليست ظاهرة حديثة ولو أن في ذلك الوقت كان العالم يهاجر بأفكاره لا بجسده وكتب الأستاذ بيومي مذكور تحت عنوان «الفلسفة الإسلامية والنهضة الأروبية» مقالا ذكر فيه ما يلي: «والحق أن ابن رشد كان أكبر فلاسفة الإسلام حظا من الترجمة اللاتينية ترجمت شروحه على أرسطو في صورها المختلفة من كبير وصغير وتلخصيات، وفي هذه الترجمات ما أعان على نشر المذهب الرشدي في الغرب وهيأ مصادر وفيرة لدرسه وبحثه وهو هنا بدون نزاع أعرف منه في الشرق»(4).

وإذا أوردنا هذه النبذ التاريخية المعروفة عند الكثير فلنتعظ بها ونأخذ دروسا من الماضي -فالنخبات الإسلامية كانت قصيرة النفس تزول قبل أن تصل إلى مرحلة الكهولة وقبل أن تتأصل في المجتمع وتتغلغل في نفوس أفراده حتى تستطيع مقاومة كل حركة مضادة مما يضمن لها الاستمرارية التي هي أساس التكديس الثقافي.

وإذا تكلمنا عن الصراعات الفكرية والثقافية فالمجتمع الإسلامي لا يتميز بها وحده فهي ظاهرة شاملة وتكون إيجابية إذا وجدت من يبحث عن الحقيقة وينشدها قصد اصلاح الأوضاع الاجتماعية وترقية الجماهير وهذا من مهام رجال الفكر والثقافة إذا ساروا على المنهج الأسلامي المعروف بالحرية واحترام آراء الغير مادامت متماشية مع العقيدة والشريعة.

إن اخماد أصوات المعارضين بالعنف ترك في النفوس صورا من الماضي بغيضة والقرآن الكريم يحذرنا عاقبة هذا النوع من السلوك: «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم و يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض» (الأنعام، 56).

ويبدو من خلال الدراسات أن أسباب تفكك المجتمع الإسلامي أمراض نفسية إجتماعية تسربت إلى شخصية المسلم ففرضت مقوماتها ونزعت منها كل حيوية فبقيت شبحا بلا روح -وأصبحنا نستهلك ما لا ننتج ونقول ما لا نفعل نلعن الحضارة المعاصرة وننغمس في ملذاتها ونتمنى على اللّه الأماني والآية الكريمة بقطع النظر عن سياقها تصور وضعنا الحالي تصويرا دقيقا في أبهتنا في كلامنا وما فيه من بيان كاشفة الستار عن حقيقتنا. «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وأن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة»

(المنافقون) وفي الحديث ما ينطبق علينا كذلك، روى أبو داوود في سننه أن رسول الله (ص) قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الاكلة إلى قصعتها «فقال قائل» أو من قلة نحن يومئذ؟ قال (ص) «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل وسينزعن اللّه من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن «قال قائل» يا رسول اللّه وما الوهن؟ «قال» حب الدنيا وكراهية الموت».

فلا يعتنق القيم الإسلامية الرفيعة ويجسدها في نموذج إسلامي لتحقيق مشروع المجتمع إلا النخبة العالمة المخلصة ولنا في سلوك الصحابة (ض) ما يبرهن عن ذلك، فكان عمار بن ياسر يحمل الحجرتين عاتقيه ضاربا المثل في مردودية العمل وخط سليمان الفارسي رسم الخندق فوضع معلوماته في خدمة المدينة الإسلامية والدفاع عليها وتبرع أبو بكر وعثمان وغيرهما بأموالهم في سبيل المجتمع الإسلامي وتحقيق الفكرة ووضع الأنصار كل ما يكسبون تحت تصرف الجماعة المسلمة حتى قال فيهم تعالى: «والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة من أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» الحشر، 09) والإمام علي (ض) ينام في فراش الرسول (ص) وهو متيقن أن سيوف الأعداء مسلولة لتمزقه.

هذه هي النخبة الصادقة كل يعمل جاهدا في ميدانه لتطبيق التعاليم الإسلامية ونجد في التاريخ أمثلة متعددة تشهد أن الفكرة لا تخرج للواقع إلا إذا تلقتها نفس مخلصة مستعدة للتضحية من أجلها. فكان من السهل على سقراط أن يكتفي بالكلام أو أن يفر من السجن خشية الموت كما نصحه بعض تلاميذه لكنه صمد ايمانا بأنه على الحق.

والحضارة الغربية كذلك لم تكن ثمرة جنتها يد مشلولة وقدمتها هدية لعقول متقاعسة! كلا، بل هي نتيجة عمل متواصل -فمنذ القرن السادس عشر وتأسيس الكنيسة البروتستانتية إنفصالها عن الكاثوليكية اندفعت النخبات لتحقيق الهدف المنشود مضحية بالنفس والنفيس مقتحمة الأخطار ومخترقة الآفاق مدفوعة بقوة نحو مجتمع ليبرالي أسس تدريجيا بمجهودات متتالية. فكم من أموال بذلت في سبيله وكم من ثورات أوقدت نيرانها وكم من أصوات نادت بحرية الرأي وفسح المجال أمام الفرد وتشجيع مبادراته.

والمجتمع الشيوعي كذلك لم يتحقق بعد حلم لذيذ في ليلة هادئة! إنه تتويج عمل شاق قام به مفكرون وجروا وراءهم جماهير آمنت بفكرة وكافحت من أجلها.

فالنخبات الناجحة هي المتكاملة والمواضبة على العمل الدؤوب -لا يسفه ولا يثبط بعضها بعضا.

فما هو وضعنا اليوم نحن المسلمون؟ بصفة عامة جل علمائنا خارج البلدان الإسلامية حتى بقيت نخبتنا القاطنة بالديار الإسلامية عرجاء وحتى نخبة العمال أو ما يعبّر عنه «بالبروليتاريا» منتشرة عبر العالم المصنع ففي فرنسا حوالي ثلاثة ملايين من العمال المسلمين وفي ألمانيا كذلك وفي انجليترا والولايات المتحدة أضعاف هذا العدد! أما أغنياؤنا فقد زجوا برؤوس أموالهم في بنوك أمريكا وسويسرا تصنع بها ماشاء ما عدا استثمارها في البلدان الإسلامية -أفكارنا، سواعدنا، أموالنا في خدمة غيرنا. نغالط أنفسنا بالخطابات الرنانة وبالمشاريع الضخمة وبتنصيب

اللجان والجمعيات دون جد في إصلاح واقعنا الاجتماعي والاقتصادي، هذه الأوضاع السيئة هي التي نتجت عنها أزمات مختلفة بعثت في نفوس الشبات الحيرة فاهتدى إلى الإسلام لمعالجتها لكنه لا زال يبحث عن المنهج السليم وهذا الفراغ يعتبر تفريطا من طرف النخبة ولنضرب مثلا واحدا فالاقبال على الكتاب الإسلامي ظاهرة تشهد بضمإ ثقافي يعاني منه الشباب لكن الإنتاج ضئيل جدا بالنسبة للطلب الاستعانة بالكتب القديمة لما استطعنا أن نلبي الحاجة ورثنا عن السلف الصالح تركة ثقافية عريضة لكن هل تصلح كلها لزمننا؟ ولو كان لنا انتاج خصب لما التجأنا كذلك إلى ترجمة الغث والسمين ولا سيما الكتب الدينية. فرغم كل هذه العراقيل فزحف الشباب متواصل مبرز ضميرا متيقضا وثقة بالنفس وقد حقق انتصارات في مجالات ثقافية واجتماعية معتبرة لكن الفراغ الذي أحدثته غيبة النخبات في المجتمعات الإسلامية أو عدم انسجامها يشكل خطرا على آمال المستقبل. لأن فراغا كهذا إن لم يكن محروسا يتسرب إليه إما عالم جامد أو عالم جاحد حسب تعبير شكيب أرسلان ولا خير في كل واحد منهما لأن الإثنين يمثلان الانحراف -وحاجة المسلمين اليوم تتمثل في الاستقامة والوفاق والصدق وإلى مرشد حكيم. «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (آل عمران، 104).

الهوامش:

(1) - محمد علي محمد: «الاجتماع السياسي» دار الجامعات المصرية، الاسكندرية 1978 ص 330.

(2) - أبو الوليد ابن رشد: كتاب فصل المقال ... المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص 36.

(3) - أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة، القاهرة 1965، ط10، ص 301.

(4) - أثر العرب والإسلام في النهضة الأروبية، يونسكو، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1970.